أوربا و المسلمون : صورة الآخر

رؤية أسيرين أوربيين من القرن الخامس عشر الميلادى

د. حاتم الطحاوى(*)

أثرت الرؤية الأولى للإسلام من قبل المسيحية الشرقية[1] فى كافـــة ردود أفعـــال أوربا فى العصور الوسطى حيث طغت الرؤى السلبية وساهمت فى رســـم وتوجيـــه السياسات الأوربية تجاه الإسلام والمسلمين.

ومن نافلة القول أن نذكر النخبة الأوربية التى صاغت تلك الرؤى جـــاءت مـــن رجال الكنيسة، باعتبارهم القادة الروحيين للشعب المسيحى . والوحيدون الذين حظـــوا بقدر لا بأس به من التعليم فى أوربا العصور الوسطى .

ونتيجة لحركة الفتوحات الإسلامية التى نجحت فى هزيمة الجيوش البيزنطية فى معارك اليرموك وأجنادين ١٦-١٧هـ /٦٣٦-٦٤٠م [2]، فقدت الامبراطورية البيزنطية

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى – آداب الزقازيق .

١- عن الرؤى المبكرة للإسلام. راجع :

Sahas, D, Jhon of Damascus on Islam:" The Heresy of the Ismaelites",Lieden,١٩٧٢;Kotter,B, Die Shriften des Johannes von Damaskos, (Patristische Texte und Studien) vol.٤ ,New York,١٩٨١;Muir.W, The Apology of Al kindi Written at the Court of Al Mamun in Defence of Christianity Against Islam,London ,١٨٨٢ ; Hoyland, R, Seeing Islam As Others Saw it. A survey and evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian writings on Early Islam, Newjersey, ١٩٩٧.

٢- أنظر : ابن أعثم (أبى محمد أحمد بن أعثم الكوفى) ، الفتوح ، ج١، بيروت، د.ت ، ص ٢١٨- ٢٤٤ ؛ الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل و الملوك، ج٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٣٩٤- ٤١٨ ، ٦٠٥-٦٠٧ .

معظم الأراضى التى كانت تسيطر عليها فى بلاد الشام . قبل أن ينجح المسلمون بعد ذلك فى فتح فلسطين ١٨ هـ -٦٣٨م[١] ، ومصر ٢٠ هـ -٦٤٠م[٢].

وبعد فشل ما قامت به الإمبراطورية البيزنطية من رد فعل عسكرى فى مواجهة الفتوحات الإسلامية ، بدأت فى منظومة من رد الفعل على المستوى الثقافي .وفاضت كتابات غزيرة على المستوى الرسمى تتهم الدين الجديد بأنه مجرد هرطقة مسيحية جديدة ، وتقرن ما بين الإسلام والوثنية من ذلك ما أورده بطريرك كنيسة القسطنطينية جرمانوس الأول Germanus I (٧١٥ - ٧٣٠م) الذى دبج رسالة زعم فيها أن المسلمين قوم وثنيون يعبدون إلهاً حجرياً Chobar فى شبه الجزيرة العربية[٣].

على أن المؤرخ البيزنطى ثيوفانس Theophanes (٧٦٠ - ٨١٧م) يعد أول من صاغ رؤية بيزنطية متكاملة تجاه الإسلام والمسلمين[٤] تأثرت بشكل كبير بالكتابات المسيحية الشرقية الأولى التى تحاملت على الإسلام ونبيه . وسار على نفس النهج نيكيتاس البيزنطى Nikitas of Byzantium (٨٤٢ - ٩١٢م) الذى وصفا المسلمين بالوثنيين الذين يتبعون " أساطيرا محمدية "[٥].

١- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) فتوح البلدان، تحقيق عبد الله و عمر الصباغ، بيروت، ١٩٨٧م ، ص ٢٣١- ٢٤٩ ، الطبرى، المصدر السابق، ج٣، ص ٦٠٧- ٦١٣ .

٢- البلاذرى ، المصدر السابق، ص ٢٩٨ ؛ الطبرى ، المصدر السابق، ج٤، ص ١٠٤- ١١٠ ؛ ابن الأثير (عزالدين أبو الحسن الشيبانى) ، الكامل فى التاريخ، ج٢ ، ١٩٨٧م، ص ٤٠٥ .

٣- Hoyland, op. cit, pp.١٠٥-١٠٦

٤ - عن ذلك راجع :

Theophanes The Confessor, Chronographia, trans. By, C. Mango and R. Scott , Oxford, ١٩٩٧, pp. ٤٦٤ - ٤٦٥.

وعن موقف ثيوفانس من فتح المسلمين للشام و فلسطين . راجع: طارق منصور ، المسلمون فى الفكر المسيحى ، العصر الوسيط، القاهرة، ٢٠٠٨م ص ١٣٧- ٢٠٠.

٥- Nicetae Byzantini Philosophi Confutatio Falsi Libri Quem Scripsit Mohamedes Arabs, in, PG ١٠٥: ٧٠٧- ٧٠٨ , ٧٧٥- ٧٧٩, ; وانظر أيضا : ٧٩٣

with Islam : A study of Demetriades, J.M., Nicetas of Byzantium and his Encounter the " A Natrope" and the Two " Epistles" to Islam , Ph.D.Thesis , The Hartford Seminary Foundation , ١٩٧٢

وفى الغرب الأوربى شكل العديد من الكتاب والمؤرخين مثـــل فريـــديجاريوس Fredegarius [١]، وبيده Bede و أنستاسيوس Anastasius أمين مكتب البلاط البابوى فى روما الرؤى المبكرة لغرب أوربا تجاه الإسلام والمسلمين . حيث تابع الأوربيون منذ البداية أخبار الآخر المسلم بعد نجاحه فى انتزاع بلاد الـشام ومـصر وشـمال افريقية من قبضة البيزنطيين ، إلى أن أصبح فى مواجهة الغرب الأوربـى بـشكل مباشر بعد نجاح المسلمين فى فتح الأندلس ٧٣٢م [٢] وتوغلهم حتى جنوب فرنسا.

على أن المساهمة الكبرى التى زادت من التصورات والرؤى الأوربية الـسلبية تجاه الإسلام جاءت من قبل البابوية الكاثوليكية فى أواخـر القـرن الحـادى عـشر الميلادى ، عبر خطبة الباب أربان الثانى Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م) فى مجمـع كليرمونت بجنوب فرنسا ١٠٩٥م ، التى دعى فيها للحركة الصليبية وقتل المـسلمين الوثنيين ،أعداء الرب المسيحى ، مقابل الحصول على الغفران [٣]. تلك الـرؤى التـى آمنت بها وكرستها كتابات المؤرخين الصليبين المعاصرين للحملة الصليبية الأولى.

حدث هذا قبل أن تتبلور بعد ذلك وابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى بعض الرؤى الأوربية المعتدلة عن الإسلام ونبـى المـسلمين بعـد وصـول الـصليبيين واستقرارهم فى بلاد الشام . وكذلك بفضل عمليات الاحتكاك مع التجـار المـسلمين الذين مارسوا التجارة مع الغرب الأوربى و الامبراطورية البيزنطية ، لدرجة وجـود

١- The Fourth Book of The Chronicle of Fredegar with its Continuations, Trans. By, J. M. Wallace- Hadrill, M. Y, ١٩٦٠, pp. ٥٤- ٥٥, ٦٨- ٦٩, ٩٠- ٩١; Hoyland, op. cit, pp. ٥٢٤- ٥٢٥, ٤٢٢.

٢- البلاذرى، المصدر السابق،ص٣٢٣ ، ابن القوطية (ابوبكر محمد بن عمر)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق ابراهيم الأبيارى ، القاهرة ، ١٩٨٢م،ص٢٩، ٣٣ .

٣- عن نصوص خطبة البابا أربان الثانى فى مجمع كليرمون. إرجع الى :
Fulcher of Charter , Historia Hierosolymitana . A History of The Expedition to Jerusalem ١٠٩٥-١١٢٧, Trans.by,Frances Rita Ryan , Xnoxville,١٩٦٩,pp.٦١-٦٩ , .in, RHC,oc,iii,Paris,١٨٦٦,pp٧٢٧- Robert The Monk , " Historia Iherosolimitana" ٧٣٠.

حى إسلامى ضم هؤلاء التجار فى العاصمة القسطنطينية استمر حتى غـزو المدينـة بواسطة الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م [١].

وظل الدين بعد ذلك يمثل عاملاً حاسماً فى العلاقات التركية البيزنطية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين عبر أعمال الجهاد التى قام بها الأتراك السلاجقة والدانشمنديون [٢]، ثم العثمانيون الذين نجحوا فى قضم الممتلكات البيزنطية فى أسيا الصغرى قبل العبور الكبير إلى القارة الأوربية عام ١٣٥٤م [٣].

وإزاء الضعف البيزنطى تجاه العثمانيين استغل السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) المعروف بالصاعقة Beyazit Yildrem هذا الوضع ليفرض شـروط ذات دلالة دينية على الامبراطور البيزنطى مانويل باليولوجس من ضمنها ضرورة بنـاء مسجد جديد للمسلمين فى القسطنطينية ، فضلاً عن ضرورة وجود قاض مسلم للحكم

---

١ - عن ذلك انظر :

Chaniates, N, O city of Byzantium . Annals of Nikitas Choniates , Trans.by, Magoulias ,H. J, Detroit,١٩٨٤ ,pp. ٣٠٢-٣٠٣،٤٠٥ . note١٤٧٢ ; Madden, T.F , "The Fires of The Fourth Crusade in Constantinople, ١٢٠٣- ١٢٠٤; A Damage Assessment ", in, B.Z , vol, ٨٤- ٨٥, ١٩٩١, pp. ٧٦, ٩٠- ٩٢.

٢ - انظر : ابن البيبى ، مختصر سلجوق نامة (أخبار سلاجقة الروم) ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين ، الدوحة، ١٩٩٤م ، على بن صالح المحاميد ، الدانشمنديون و جهادهم فى بلاد الأناضول ، الإسكندرية ، ١٩٩٤م .

٣ - قام الامبراطور البيزنطى يوحنا السادس كانتاكوزينوس John vi Cantacauzenus (١٣٤٧-١٣٥٥ م) بالاستنجاد بالسلطان العثمانى أورخان Orkhan الذى أمده بقوات ساعدته على الإنتصار فى الحرب الأهلية البيزنطية و فى تثبيته على العرش فى القسطنطينية . حدث هذا قبل أن ينجح أورخان و قواته فى العبور للضفة الغربية لمضيق البوسفور و الاستيلاء على مدينة غاليبولى Gallipoli عام ١٣٥٤م . عن ذلك انظر :

Asikpasa oglu Tarihi, Hazirlayan, A. Nihal Atsiz, Ankara, ١٩٨٥, pp. ٥١-٥٣;

Dolger. F. regesten der Kaiserurkunden des Ostromis Schen Reiches, ٥٦٥- ١٤٥٣, ٢. Teil ١٠٢٥- ١٢٠٤, Munchen, ١٩٢٥, p. ٣٦

بين السكان المسلمين المقيمين بها [1]. حدث هذا قبل أن ينجح العثمانيون فى فتح القسطنطينية فى العام ١٤٥٣م[2].

ومنذ وقت مبكر لم تكن البابوية الكاثوليكية لتستكين أمام الزحف العثمانى الذى توغل فى بلاد البلقان . فدعت إلى قيام حملة صليبية جديدة عام ١٣٩٦م . غير أن السلطان العثمانى بايزيد Beyazid، الذى اضطر لرفع حصاره عن القسطنطينية آنذاك ، تمكن من إلحاق هزيمة ساحقة بالجيش المسيحى الكبير المؤلف من آلاف المجريين البلغار والفرنسيين و الانجليز عند مدينة نيقوبوليس Nicopolis[3] فى العام ١٣٩٦م . فضلا عن تمكن العثمانيين من أسر المئات من الجنود المسيحيين .

ونظرا لتوفر كتابات النخب الأوربية الكنسية والعلمانية ،تحاول هذه الورقة تلمس صورة أخرى مغايرة عن الإسلام والمسلمين فى كتابات تعبر عن مشاعر الأوربيين العاديين ، وبشكل خاص أفراد الطبقة غير المثقفة من الجنود والأسرى ومايحملونه من رؤى منبثقة من ثقافتهم المحدودة التى أنتجت تصورات شعبية متباينة عن الآخر المسلم. كما تعكس فى نفس الوقت صورة تلقائية غير متعمدة ، وإن كانت

١- Doukas,M, Dicline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks , Trans.by, Magoulias,H.J,Detroit,١٩٧٥,, pp.٨٣- ٨٤ ; Asik pasa oglu, op. cit, pp. ٦٨- ٦٩.

٢ - عن المصادر الأصلية للفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م . راجع :

Nicolo Barbaro, Diary of the siege of Constantinople ١٤٥٣, trans. by, J. R. Jones, New York, ١٩٦٩; The Siege of Constantinople ١٤٥٣ : Seven Contemporary Accounts, trans. by, J. R. Jones, Amesterdam. ١٩٧٢.

ولهذين الكتابين ترجمتين باللغة العربية . انظر :

حاتم للطحاوى، للفتح الاسلامى للقسطنطينية ١٤٥٣ (دراسة و ترجمة و تعليق) ، القاهرة ، ٢٠٠٢م، الحصار العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م . سبعة مصادر معاصرة ، القاهرة، ٢٠٠٣م .

٣ – عن انتصار العثمانيين على القوى الأوربية المسيحية فى موقعة نيقوبولس راجع المصادر التالية:

Doukas, op. cit, pp. ٨٣- ٨٥; Chalcocondylas, L , Historiarum Demonstrations, ed. B. G, Niebuhrii, book ii, in, C. S. H .B, Bonne, ١٨٤١,pp. ٧٥- ٧٧; Froissarat, Chronicle of Froissart, trans. by, John Bouchier, London, ١٩٣٠, pp.٤٢٢- ٤٤٧.

بطبيعة الحال متأثرة بالأوضاع الإجتماعية والثقافية لأصحابها، والناتجة فى الحالتين موضوع الدراسة عن اختلاط مايمكن تسميته بحالة "الإسلام الشعبى" و"المسيحية الشعبية" ،خاصة فى حالة وقوع الجندى المسيحى فى أسر الجنود المسلمين لسنوات طويلة ، بالإضافة الى الإختلاط الحاصل بالفعل فى مناطق التماس بين الحدود الإسلامية والمسيحية فى أراضى الأناضول والبلقان وأراضى القبيلة الذهبية وغيرها .

كان الفتى الألمانى يوهان شيلتبرجر Johan Schiltberger فى الرابعة عشرة من عمره عندما غادر منزله القريب من مدينة ميونيخ ١٣٩٤م ، لمرافقة سيده الأمير لينهارت ريتشارتجنر Leinhart Richartinger واللحاق بالحملة الصليبية التى دعى اليها سيجموند Sigmond ملك المجر لمحاربة العثمانيين فى نيقوبوليس١٣٩٦م عندما سقط أسيرا فى قبضة الجنود العثمانيين [١].

وبعد أن ذكر لنا كيف نجا من عملية إعدام الأسرى لصغر سنه ، أشار إلى الاحتفالات العثمانية بالنصر فى نيقوبوليس التى كانت أبرز مظاهرها إرسال السلطان العثمانى بايزيد للعديد من الأسرى إلى الممالك الاسلامية ، كدولة المماليك . وحكام العراق وفارس ، وتتار قبيلة الشياه البيضاء . كما ذكر أنه كاد يرسل ضمن الأسرى المتجهين للسلطان المملوكى برقوق فى القاهرة [٢]، لولا إصابته بجروح خطيرة ليبقى لدى العثمانيين حيث عمل فى حاشية السلطان العثمانى بايزيد خادما أو جنديا للمراسلة

١- Schiltberger, J, The Bondage and Travels of Johann Schiltberger, A narrative of Bavaria in Europe, Asia, and Africa ١٣٩٦- ١٤٢٧, trans. by, Buchan Telfer, N.Y, ١٨٧٩, p.٤ .

٢- Ibid, p. ٧

و لدينا مصدر تاريخى كتبه التاجر البندقى مانويل بيلوتى Emmanuel Piloti أشار فيه الى إرسال العثمانيين لمائتين من أسرى موقعة نيقوبولس للقاهرة . و أنه شاهد هؤلاء الأسرى فى البلاط المملوكى . راجع :

Traite d'Emmanuel Piloti sur Le passage en Terre Saint (١٤٢٠) , Paris, ١٩٥٨, p. ٢٢٩.

Runner لست سنوات قبل أن ينتقل بعدها إلى حاشية تيمور لنك بعد نجاح العاهـــل المغولى فى هزيمة وأسر السلطان بايزيد فى موقعة أنقرة ١٤٠٢م .

وهكذا ظل ملازماً لسيده الجديد ثلاث سنوات حتى وفاته عام ١٤٠٥م [١]، لينتقل بعدها إلى خدمة ابنه شاه رخ ثم الى الى أبى بكر بن ميران شاه . قبل أن يهبه الأخير مع أربعة من الأسرى المسيحيين ، فضلاً عن ستمائة فارس، إلى صديقه المغولى جكرة أوغلان Tchekre الذى كان مقيماً لديه ، قبل أن تصل اليه الرسل من قبل الأمير إديجاى Edegi ، المهيمن على الأحوال السياسية ، بضرورة الوصول لاستلام العرش الشاغر فى خانية قبيلة المغول الذهبية[٢].

وظل شيلتبرجر أسيرا حتى نجاحه فى الهرب الى وطنه فى ألمانيا عام ١٤٢٧م. وهناك أملى كتابه الذى أرخ فيه لفترة الأسر الطويلة.

وهكذا عاش الأسير الألمانى ،محافظا على مسيحيته الكاثوليكية، أكثر من ثلاثة عقود « ١٣٩٦ – ١٤٢٧م » فى كنف المجتمعات المسلمة فى أراضى العثمانيين والمغول . الأمر الذى جعله يمر بتجربة فريدة من نوعها مكنته من الاقتراب من المسلمين والدين الاسلامي وشعائره عن كثب . الأمر الذى جعله يخصص أكثر من عشرة فصول فى كتابه للحديث عن الإسلام والمسلمين (الفصول ٤٥ – ٥٥). وإن كان ذلك قد تم دون أن يسبر أغوار الدين الاسلامى بشكل موضوعى وعميق . وذلك بفضل ثقافته المسيحية التى لازمته طوال فترة الأسر، فضلا عن البيئة والمناخ الثقافى الذى عاش داخله فى معية الجنود العثمانيين والمغول .

أما الأسير المـــسيحى الثـــانى ، فكـــان الـــصربى قـــسطنطين ميخـــائيلوفتش Konstantin Mihailovic التابع للكنيسة الصربية التى تبنت المذهب الأرثوذكسى لكنيسة القسطنطينية البيزنطية [٣] منذ القرن العاشر الميلادى ، فقد سقط مع أخويه فـــى

١- Ibid, pp. ٢٩- ٣٠ .

٢- Ibid, p. ٣٣.

٣- Soulis , G. S, " The Legacy of Cyril and Methodius to the southern Slaves ",in , DOP ,vol. ١٩،١٩٦٥ ,p. ٣٦.

قبضة الحملة العثمانية التى أرسلها السلطان محمد الفاتح لمهاجمة الصرب بعد نجاحها فى الاستيلاء على مدينة نوفوبرادو Novobrado عام ١٤٥٥م . وفى طريق العودة ، حاول ميخائيلوفتش الهرب مع مجموعة من رفاقه الأسرى عبر الغابات والجبال ، غير أنهم فشلوا فى ذلك ، مما دفع العثمانيين إلى القبض عليهم من جديد[١].

وخلال فترة الأسر لدى العثمانيين ، عمل ميخائيلوفيتش جندياً فى فرقة الانكشارية Janissary فى الجيش العثمانى ، فشارك مع جنود السلطان الفاتح فى حصار مدينة بلجراد فى العام التالى ١٤٥٦م ، وكذلك فى الحملات على المورة ١٤٥٨م وطرابيزون ١٤٦١م وضد دراكولا Dracula حاكم ولاشيا عام ١٤٦٢م[٢].

كما اشترك فى نهاية خدمته العسكرية فى الحملة العثمانية على البوسنة عام ١٤٦٢م . وأثناء ذلك تواجد ميخائيلوفتش مع الجنود العثمانيين فى قلعة Zvecej قبل أن يهاجمها ملك المجر ماثيو كورفينوس ويقوم بأسره ضمن حاميتها من الإنكشارية [٣]. وهكذا عاد إلى بلاده وهو غنى بخبراته وذكرياته عن ثمانى سنوات من الأسر(١٤٥٥-١٤٦٢م) قضاها بين العثمانيين المسلمين ،حيث خلف كتاباً استعاد فيه ذكرياته مع الإنكشارية ،وانطباعاته عن الدولة العثمانية والإسلام .

ويجب علينا قبل الولوج إلى ما ذكره الأسيرين : شيلتبرجر وميخائيلوفيتش من انطباعات عن الدين الاسلامى والمسلمين ، أن نذكر بأن ما كتباه لا يمكن أن ينفصل عن المناخ السياسى والعسكرى وحالة العداء بين أوربا المسيحية والعثمانيين المسلمين. وهو ما تجلى عبر العديد من ردود الفعل الثقافية من الجانبين . كما لا يمكن أن ينفصل أيضاً عن وطأة تجربة الأسر وإسقاطاتها.

كان من الطبيعى أن يتخذ الأسيران شيلتبرجر وميخائيلوفيتش موقفاً عدائياً من الإسلام دينا وعقيدة . غير أن معايشتهما لما يمكن تسميته "بالإسلام الشعبى " الموجود

١- Konstantin Mihailovic, Memoirs of A Janissary, trans. by, Benjamin Stolz, Ann Arbor, ١٩٧٥, p. ٩٩.

٢- Ibid, pp. ١١٧- ١١٩ ; ١٣١- ١٣٢.

٣- Ibid, pp. ١٤١- ١٤٣.

لدى الجنود الإنكشارية والمغول والمختلط بالطرق الصوفية والدراويش قد أنتج لديهما صورة افتقدت للموضوعية والعمق .

وهكذا انعكس المناخ الثقافى المحدود لهؤلاء الجنود على تصوراتهما عن الاسلام الحقيقى ، وهو الأمر الذى استمر أيضا لدى شيلتبرجر فى سنوات أسره الطويلة عند مغول القبيلة الذهبية بفضل المؤثرات الثقافية التى ربطت بين الأتراك والمغول . ويبدو أنهما قاما بعد ذلك بتدوين كافة ما استمعا إليه من معلومات مشوشة اختلطت فيه الحقيقة بالأسطورة عن الإسلام وتعاليمه وشرائعه ، ونبي المسلمين ، لدرجة أن شيلتبرجر ذكر أن المسلمين يدينون بعدة ديانات ، فعلى الرغم من أن معظمهم يؤمنون بمحمد، فإن منهم من يؤمن بعلى ابن أبى طالب ، والبعض الآخر بشيخ مسلم يدعى الملا Molwa [1] ، والبعض الآخر يؤمن كما آمن الملوك الثلاثة قبل تعميدهم ، بل إن بعضهم يعبدون النار!! .

وهكذا ، فمن البداية تبدو عدة دلائل لا يمكن إغفالها ، الأولى أنه قام بجمع كافة الأديان والعقائد التى سمع عنها كالإسلام والمسيحية والزرادشتية والشامانية والمانوية، وآمن بها السكان فى الأقاليم التابعة للعثمانيين ومغول القبيلة الذهبية، واعتقد أنها جميعا أديان يؤمن المسلمون بها.

وفضلاً عن هذا ، فعلى الرغم من وجود شيلتبرجر فى الفضاء العثمانى والمغولى السنى فإنه يمكن بسهولة ملاحظة تأثره بالمؤثرات الشيعية ، بفضل بقايا الشيعة الإسماعيلية الذين انتشروا فى الأناضول وآسيا الوسطى .

ومن المعروف أن المؤثرات الشيعية قد تسللت منذ وقت مبكر إلى العثمانيين السنة الذين عاش وسطهم شيلتبرجر عبر تعاليم الطريقة البكتاشية التى أسسها الحاج محمد بكتاش النيسابورى « ٦٤٦هـ - ١٢٨٤م » ، وانتشرت على نطاق واسع

١- " The Bondage and Travels ", p. ٦٥.

بالأناضول [١] ، واحتفى بها السلاطين العثمانيون لدرجة أن السلطان العثمانى أورخان، عهد إلى البكتاشية بتعليم الشبان الأسرى من أهل الذمة الذين عرفوا باسم الدفشرمة Devshirme ، الذين جرى تأهيلهم عسكريا بعد ذلك للإلتحاق بفرقة الإنكشارية Janissaries [٢] .

ومن الواضح هنا أن أسيرنا الألمانى قام بإسقاط واقعه الثقافى ، كمسيحى آمن بألوهية عيسى عليه السلام ، فافترض أن المسلمين يعبدون محمداً أيضاً.

واختلطت الحقيقة بالأسطورة فى العديد من تصورات شيلتبرجر تجاه الإسلام والمسلمين . من ذلك النبوءة المتعلقة بنبى المسلمين قبل أن يأتيه الوحى ، فبعد أن ذكر أنه ولد فى الجزيرة العربية لأبوين فقيرين . وفى صباه طلب من بعض التجار مرافقتهم فى إحدى القوافل التجارية الى مصر من أجل رعاية الإبل والخيول [٣].

---

١ – عن الحاج محمد بكتاش و الطريقة البكتاشية فى الأناضول . راجع : محمد فؤاد كوبريلى ، المتصوفة الأولون فى الأدب التركى ، الجزء الأول ، ترجمة عبد الله أحمد ابراهيم ، القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ص ١٠٤– ١١١ ، ج٢ ، ص٣٠ ، ٢٣٦ – ٢٣٧ . وانظر أيضا :

Birge, J, The Bektashi Order of Dervishes, London,١٩٣٧.

٢ – الدفشرمة لقب أطلق على الشبان الصغار الذين انتزعهم العثمانيون من أهلهم من أهل الذمة قبل أن يقومون بتدريبهم على أعمال الفروسية والحرب للإلتحاق بفرق الإنكشارية و الخدمة فى القصر . والإنكشارية تعنى بالتركية Yeni Chari أى الجيش الجديد وهم القوة الضاربة فى الجيش العثمانى منذ عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٢–١٣٨٩م) وقاضى العسكر جاندارلى خليل حيث كان يجرى فى البداية أخذ أسير من بين كل خمسة أسرى للإلتحاق بالإنكشارية مقابل مرتبات من الدولة العثمانية . راجع :

Bayerle, G, Pashas, Begs and Effendis : A Historical Dictionary of Titles and Terms in the Ottoman Empire ,Istanbul,١٩٩٧,pp.٣٧،٨٨.

سونيا محمد البنا، فرقة الإنكشارية نشأتها ودورها فى الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية ، القاهرة،٢٠٠٥م، ص١٣–١٤.

٣- " The Bondage and Travels ", p. ٦٥.

وهو يشير هنا إلى حقيقة الدور الإقتصادى لتجار قريش قبيل الإسلام ، فى ظل ما نعرفه من خلال تردد القوافل التجارية بشكل خاص على الشام واليمن ومصر [١]. غير أنه أشار فى ملاحظة تدعمها الوقائع التاريخية أيضا أنه حينما كان يتوقف النبى محمد عن سيره ،كانت تظلله غمامة دائما [٢].

على أية حال ، تستمر رواية شيلتبرجر لتذكر وقوف القافلة بالقرب من إحدى القرى فى مصر ، حيث لاحظ راعى إحدى الكنائس الأرمينية ؟! تلك السحابة التى تظلل محمدا ، فتنبأ له بأنه النبى القادم [٣].

وفى إشارة ذات دلالة حول واقع الأسر الذى عاشه المسيحى شيلتبرجر وسط العثمانيين المسلمين الذين حملوا راية الجهاد الاسلامى ضد القوى الأوربية المسيحية ، فإنه يعود ليذكّر بأن ذلك القس أبلغ نبى المسلمين المنتظر أنه سوف يوقع الكثير من الاضطهاد بالمسيحيين . وأن خلفاءه أيضاً سوف يستمرون فى ظلم واضطهاد المسيحيين .وناشده ألا يأمر باضطهاد شعبه الأرمنى وأن يدعه فى سلام. وهو ما

---

١ – تناولت العديد من المصادر التاريخية الإسلامية تجارة قريش مع الشام واليمن ومصر. راجع أيضا ما ذكره ثيوفانس عن سفر النبى محمد بتجارة السيدة خديجة الى مصر و فلسطين قبل الإسلام..Chronographia , p.٤٦٤

٢- Ibid, p. ٦٦.

من الواضح أن حديث شيلتبرجر يتطابق تماما مع ماورد فى كتب السيرة النبوية . راجع على سبيل المثال : إبن هشام، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبدالحفيظ شلبى،القسم الأول ،الجزء الأول ، القاهرة ، د.ت ، ص ١٨١–١٨٣، ١٨٨ حيث يتناول نفس التفاصيل تماما حول دور الراهب بحيرى الذى استضاف القافلة فى بصرى على تخوم الشام ونبوءته عن نبوة الشاب محمد المرافق للقافلة . وعلى الرغم من تكرار ورود تلك الرواية فى كتب السيرة فإن بعض المؤرخين قد رفضوها لضعف السند. عن ذلك راجع : الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان)، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام،السيرة النبوية،تحقيق عمر عبد السلام تدمرى،بيروت،د.ت،ص٥٧.

٣- Loc. cit.

استجاب إليه محمد ، فلم يقم باضطهادهم ،غير أنه فرض عليهم ضريبة شهرية بسيطة .[1]

وبعيداً عن التشوش البادى فى رواية شيلتبرجر ، فإننا ندرك منها أنه كان يقصد الجزية التى فرضها الفاتحون المسلمون على سكان البلاد المفتوحة الذين فضلوا الاستمرار على دينهم[2].

ويمكننا أن نتساءل : لماذا اعتبر شيلتبرجر أن مسيحيى مصر قبل الإسلام كانوا من الأرمن؟. الواقع أننا لا نجد تفسيراً لظهور القس الأرمنى وكنيسته أكثر من مرة فى روايته وهو يشير إلى مصر . غير أنه يمكننا أن نفترض أنه نتيجة لمكوثه فى اقليم أرمينيا ، ومدن قارس ويريفان الأرمينية عندما كان فى خدمة أبيى بكر بن ميران شاه ، فقد سنحت له الفرصة كمسيحى لمقابلة العديد من المسيحيين الأرمن من سكان تلك المناطق . حيث ذكر أنه عاش فترة طويلة معهم ، وأشار الى أنهم قد عاملوه بود شديد ... وحسب كلماته « .... لقد عاملونى بلطف لأننى ألمانى »[3].

ونتيجة لهذا فربما كان قد سمع هذه الرواية السابقة عن نبوءة محمد من المسيحيين الأرمن الذين ربما هدفوا الى رفع شأن الكنيسة الأرمنية بزعم أنها كانت موجودة فى مصر قبل الإسلام . وهو الزعم الذى لا تؤكده المصادر التاريخية المعاصرة .

١- Loc. cit.

٢ – قال تعالى" قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ". سورة التوبة،٢٩ وعرف الفقه الإسلامى مصطلح "أهل الذمة" على أهل الكتاب من المسيحيين واليهود وكذلك على السامرة والصابئة بشرط موافقة المسيحيين واليهود فى أصل عقيدتهم. والجزية هى مقابل ضريبة الدفاع عنهم فى ،أومقابل مادى لما تمتعوا به من حماية فى دار الإسلام. راجع : الماوردى(أبو الحسن على بن محمد البصرى البغدادى) ، الأحكام السلطانية ، القاهرة،د.ت، ص١٣٧–١٣٦؛ ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله بن أبى بكر)، أحكام أهل الذمة ، الجزء الأول، نشره صبحى الصالح، دمشق،١٩٦١م، ص ٢٢–٢٣.

٣-" The Bondage and Travels", p. ٨٦

واعتماداً على المناخ الثقافى المعادى للاسلام والمسلمين فى أوربا ، ونتيجة لوطأة الأسر الطويل الذى رافق شيلتبرجر ، فقد أكد بشكل دائم فى كتاباته بوصفه شاهد عيان على الإنتصارات العثمانية على بيزنطة والقوى الأوربية ،على أن مسألة اضطهاد المسيحيين وأسرهم ، هى مسألة قديمة تقع فى بنية الدين الإسلامى فى نفسه [١].

ولعل أوضح مثال على اختلاط الأسطورة بالحقيقة عندما أشار الى أن محمداً قد تزوج من زوجة ملك مصر بعد وفاة الأخير ، ثم قام بدعوة أتباعه إلى الايمان بالله خالق السموات والأرض بدلاً من عبادة الأوثان[٢] .

استمر شيلتبرجر فى روايته ليذكر أن محمداً استعان بأربعة من أتباعه من المتفقهين فى الدين الجديد [٣] .وعلى حين اعترف أن أبى بكر قد احتل مكانة أرفع من الباقين ، فإنه عاد أشار إلى أن محمداً اختص على بن أبى طالب بمنزلة خاصة.

١- " The Bondage and Travels ", p. ٧٣, ٧٨

من ذلك إشارته الى تهدم ألف كنيسة يوم ميلاد نبى المسلمين . و استمر شيلتبرجر فى التركيز على هذه المسألة، فزعم أن كتاب المسلمين القرآن Alkoray يذكر أنه تم قتل تسعين ألفاً من المسيحيين فى يوم واحد ، و لهذا أسلمت الجزيرة العربية كلها .

راجع p. ٦٧

٢- ولعل تلك الدعوة هى الوحيدة التى لم يدخلها التشوش لدى شيلتبرجر . فقد ذكر بموضوعية أن نبى المسلمين ".. دعى إلى الايمان بالله خالق السموات والأرض ، وليس بالأصنام التى صنعها البشر ، التى لا تسمع بآذانها ولا تبصر بأعينها ، ولا تتكلم بألسنتها ، وليس لها قدم ولا تستطيع السير ، ولا تملك دفع الضرر عن نفسها ". راجع : p.٦٧

٣- Ibid, p.٧٧

ذكر شيلتبرجر أن نبى المسلمين عهد بمسئولية التشريع الدينى الى عمر بن الخطاب ، و التشريع الدنيوى الى عثمان بن عفان ، بينما تولى أبوبكر الصديق مسألة الحسبة و الموازين و الصناعات.

"...فجعل له الرئاسة على جميع قومه "، كما عهد إليه بمحاربة مسيحيى الجزيرة العربية وإكراههم بالسيف على دخول الإسلام [١].

وبعيداً عما أصاب أفكار شيلتبرجر عند حديثه عن الخلفاء الراشدين دون ترتيب حقيقى . وكذا خلط أعمال الحسبة بالتشريعات الدينية والدنيوية ، فإن إشارته إلى على بن أبى طالب ودوره تحمل أيضا مؤثرات شيعية واضحة كانت موجودة وسط الفضاء العثمانى السنى .

غير أن المسألة الجديرة بالاهتمام هى ما قام بترديده عبر التركيز على فكرة القتال والاضطهاد الذى أوقعه المسلمون بالمسيحيين فى بيزنطة والبلقان . فهو يشير إلى أن نبى المسلمين أمر بنفسه بضرورة اضطهاد المسيحيين ، وهو الأمر الذى أصبح نبراساً إهتدى به كافة المسلمين [٢]. بل أضاف مدفوعا بالواقع التاريخى الذى يحاصره فى رحلة الأسر ، أن المسلم الذى يقوم بقتل المسيحيين بهذه الطريقة يطلق عليه لقب غازى Ghazi "[٣] ... ويوجد الكثير منهم فى بلاد الأتراك ، ودائماً ما يعادون المسيحيين لأن هذه شريعتهم".

---

١ - Ibid,p.٦٧

٢- " The Bondage and Travels" , p. ٧٤

وحسب كلماته " عقد أتباع محمد تحالفاً لقتل المسيحيين وعدم أسرهم ، لدرجة أنه إذا التقى الطرفان فى معركة ، ولم يفلح المسلم فى النيل من المسيحى ، فإنه يتوجب عليه أن يشترى مسيحياً آخر من بين الأسرى ، ليقوم بقتله ".

٣ - راجع : p.٧٣

الغازى Ghazi و جمعها الغزاة Ghuzat فى الأصل كلمة عربية دخلت الى التركية . وأطلقت فى تلك الفترة على الجندى الذى ضم أرضا بالفتح للدولة العثمانية . كما أطلقت بشكل خاص على القادة والسلاطين المجاهدين . أنظر : شمس الدين سامى ، قاموس تركى ، استانبول، ١٩١٧م، ص٩٦٠. وكان الغزاة العثمانيون يستمدون مبادئهم من قيم الفتوة Futuvvet . و الغازى هو التابع لأوامر الله فى الجهاد ، و هو سيف الله على أعدائه و حامى المسلمين .و اذا ما استشهد فى قتال غير المسلمين ، فإنه سوف يصبح خالداً فى السموات . عن ذلك .انظر:

Gustav Bayerle, Pashas, Begs and Efendis ; A Historical Dictionary of Titles and Terms in The Ottoman Empire, Istanbul, ١٩٩٧, p. ٦٨.

غير أنه يعود ليذكر فى اعتساف أن الجندى العثمانى الذى لم يستطع أن يقوم بصرع جندى مسيحى فى ميدان القتال ، عليه أن يقوم بشراء أحد العبيد المسيحيين وقتله ليستحق لقب "الغازى"[1] .

وهكذا قام شيلتبرجر بردة فعل ثقافية لمهاجمة المسلمين الذين نجحوا فى أسره بعد أن أسبغ وحشية كبرى على بنية الدين الإسلامى. كما أنه فى نفس الوقت انتقص من قدر العثمانيين الذين قاموا بأسره ، وحط من شأنهم عبر امتهانه للقب الغازى الذى أطلق على السلاطين والجنود العثمانيين ، ليجعل الحصول عليه يسيرا .

ومن نفس المناخ الثقافى المعادى للاسلام وللعثمانيين ، قام الأسير الصربى قسطنطين ميخائيلوفيتش بالتركيز على مسألة اضطهاد المسلمين للمسيحيين بشكل وحشى ، فقد عزا إلى على بن أبى طالب أيضاً أمره بضرورة تعذيب المسيحيين أينما كانوا ، سواء فى ديار الإسلام أم خارجها [2]. كما تكررت الإشارة الى سيفه الشهير" ذو الفقار" الذى وصفه بأنه كان حادا وباترا ضد المسيحيين .

ومرة اخرى نجد أن شخصية على بن أبى طالب قد احتلت مكانة متميزة ، اختلطت فيها الحقيقة بغيرها لدى حديث ميخائيلوفيتش عن الإسلام . فقد أشار إلى تبجيل المسلمين له ورفعهم من قدره ، لدرجة أنهم جعلوا منه نبيا مثل محمد الذى اصطفاه ، وقام بتزويجه من فاطمة [3] .

ويمكن القول بأن هناك تفسيرا موضوعيا لرؤية ميخائيلوفيتش المشوشة لرابع الخلفاء الراشدين ، يتعلق بكونه قضى سنوات أسره الثمانية « ١٤٥٥ – ١٤٦٣م » وسط جنود الإنكشارية العثمانيين ، الذين كانوا يبجلون علياً بشدة بفضل علاقاتهم القوية مع طائفة البكتاشية الدراويش ، وكان تبجيل على أحد أهم مظاهر الممارسات الشائعة لهذه الطائفة ذات الجذور الشيعية فى القرن الخامس عشر الميلادى.

---

١ – راجع : p.٧٣

٢- " Memoirs of A Janissary ", p. ٩.

وحسب كلماته " إبحثوا عنهم فى بلادهم ، بدلا من ان تنتظروهم فى بلادكم"

٣ - Ibid,p.٧ غير أنه أخطأ عندما تحدث عندما تحدث عن فاطمة بوصفها أخت لمحمد .

حدث هذا قبل أن تتدهور صورة على فيما بعد ، إبان المواجهات العسكرية بين العثمانيين السنة مع الصفويين الشيعة في عصر السلطان سليم الأول منذ بدايات القرن السادس العشر الميلادى[1].

وانطلاقاً من من مناخ الهزيمة العسكرية التى حاقت بالقوى الأوربية أمام العثمانيين بعيد موقعة نيقوبوليس ١٣٩٦م ، فإن شيلتبرجر استخدم أيضا وسيلة دفاع ثقافية عند تناوله لمسألة الإنتصارات العثمانية على القوى الأوربية المسيحية ، فذكر أن المسلمين يعتقدون أن فتوحاتهم فى أراضى المسيحيين إنما هى ضرورة حتمية نتيجة لظلم المسيحيين وضلالهم ، وخروجهم على أصول دينهم ، فاستحقوا فى النهاية أن يحيق بهم غضب الرب [2]. وهكذا بدلا من الإعتراف بميزان القوى العسكرى الذى كان يميل لصالح العثمانيين المسلمين ، نجد أنه فضل أن يعزو انتصاراتهم الى ضلال المسيحيين وابتعادهم عن الرب .

هنا تتفق رؤية شيلتبرجر مع رؤى المؤرخين الكنسيين والعلمانيين طوال تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، وخاصة الذين تناولوا منهم هزائم الجانب البيزنطى أمام المسلمين العثمانيين، والكوارث التى ألمت بهم فعزوا ذلك إلى انحرافاتهم وارتكابهم للخطايا والآثام . وهو ما جلب غضب الرب عليهم ،وتسبب فى هزيمتهم أمام أعداء المسيحية [3].

١- حقق السلطان العثمانى سليم الأول (١٥١٢- ١٥٢٠م) انتصارا كبيرا على الشاه اسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران Caldiran عام ٩٢٥هـ - ١٥١٩م وعلى الرغم من أن العديد من الجنود العثمانيين كانوا على المذهب الشيعى وأظهروا تراخيا أثناء المعركة فإن العثمانيين تمكنوا من النصر فى النهاية . راجع : شمس الدين سامى، قاموس الأعلام،الجزء الثالث،استانبول ١٣٠٨هـ ، ص ١٨٦٥ -١٨٦٦.

٢- " The Bondage and Travels ", p.٧٦-٧٧

١- أنظر على سبيل المثال ما كتبه ميخائيل دوكاس و القنصل الجنوى لمستعمرة غلطة لوميلينو تعليقا على نجاح العثمانيين فى اقتحام مدينة القسطنطينية ١٤٥٣م . وتفسيرهما النهائى لهزيمة البيزنطيين:

وفى اسقاط منه على ما يتمناه من انتصار نهائى للمسيحية ضد الإسلام ، فإن شيلتبرجر لم ينس أن يذكر أن القس الأرمنى صاحب النبوءة بمحمد ، قد أخبر الأخير أن عقيدته لن تستمر سوى ألف عام ثم تنحسر [١].

وهكذا فإن شيلتبرجر الذى كان يمر بوطأة الأسر الصعبة لدى المسلمين العثمانيين والمغول منذ نهاية القرن الرابع عشر وحتى نهاية الربع الأول من القرن الخامس عشر الميلادى ، كان يريد أن يخبر قراءه المسيحيين عن تمنياته بأن فترة الصعود والإنتصارات الإسلامية قد قاربت نهايتها .

واستطرادا لنفس الفكرة أشار أيضا الى أن المسلمين سبق أن قرأوا فى نبوءاتهم أن المسيحيين سوف يقومون بطردهم من بلادهم واستردادها ثانية . غير أنهم لا يتوقعون حدوث ذلك فى وقت قريب ، ماداموا على التزامهم وطاعتهم لربهم ، فى الوقت الذى ظل فيه المسيحيون على انحرافهم وابتعادهم عن الرب [٢].

ويبدو واضحا هنا أن الأسير شيلتبرجر قد اختلق نوعاً من النبوءات قبل أن يقوم بتوظيفها من أجل حث المسيحيين على التخلص من ذنوبهم وخطاياهم ، واستنهاض عزيمتهم لتحقيق النصر على المسلمين .

وهكذا يمكننا أن نلحظ بسهولة أن رؤية الأسيرين شيلتبرجر وميخائيلوفيتش كانت منحازة ثقافياً ضد الرسول والمسلمين وضد مبادئ الإسلام وتوجهاته نحو المسيحيين . غير أن ما يلفت النظر هو أنهما عرضا فى أمانة وحياد موقف الإسلام من الدين المسيحى نفسه . فعلى حين ذكر شيلتبرجر أن المسلمين يؤمنون بميلاد

Doukas,op.cit.p.٢٣٩; Angelo Giovanni Lomelleno ," ex-Podesta of Pera, to his brother", in, The Siege of the Constantinople ١٤٥٣ : Seven Contemporary Accounts , ed. by, J.R .Melville Jones, Amesterdam,١٩٧٢,p.١٣٢.

؛ Mihailovic , op. cit, p. ٤١ .

١- " The Bondage and Travels " ,p.٦٦ .

٣ - Ibid,p.٧٧

المسيح من السيدة مريم العذراء ، وأنه حدثها المهد . فقد أشار ميخائيلوفيتش إلى أن المسلمين يعتقدون فى نفس الوقت أن السيد المسيح هو روح من عند الله[١].

كما اتفق الأسيران أيضاً فى رؤية الإسلام لمسألة صلب المسيح . وعلى حين يذكر شيلتبرجر أن المسلمين لا يعتقدون أنه قد صلب ، بل تم صلب شبيه له [٢] ، يزيد ميخائيلوفيتش أن المسلمين يذكرون أن اليهود حاولوا قتل السيد المسيح ، غير أن الله وضع فى طريقهم شخصاً شبيهاً به ،فقاموا بالقبض عليه وتعذيبه قبل صلبه [٣].

كما أشار أيضا إلى أن المسلمين يذكرون أن السيد المسيح قد رفع إلى السماء ورحبت به الملائكة . وأنه سوف يهبط الأرض فى آخر الزمان ، ليدين اليهود ،كما أنه سوف يقوم بإدانة المسيحيين أيضا لأنهم جعلوا منه إلهاً [٤]. ولم ينس أيضاً أن يذكر أن المسلمين يعتبرون أنفسهم فى مرتبة أعلى من اليهود والمسيحيين ، بوصفهم المصطفين من أجل صحيح الايمان . وأن المسيحيين قد أخطأوا كذلك لاعتقادهم فى الثالوث المقدس.

ونتيجة لطول فترة الأسر لدى المسلمين فقد شهد كل من شيلتبرجر وميخائيلوفيتش حالات تحول عديدة من المسيحية الى الإسلام ، حيث ذكر الأخير أن الذين أسلموا بشكل سنوى كان عددهم كبيراً ، وخص بالذكر منهم العديد من البحارة الإيطاليين .كما شهد بنفسه حالة تحول نادرة الى الإسلام كان صاحبها أحد رهبان جماعة القديس برنار St. Bernard [٥]، فى منطقة غلطة Galata بالعاصمة العثمانية الجديدة.

١- " Memoires of A Janissaries ", p. ١٧

٢- " The Bondage and Travels " , p. ٧٦

وحسب كلماته "..كيف يصلب المسيح خير أصفياء الله والذى لم يرتكب ذنبا قط . إن صلبه يدل على افتقار حكم الله للعدل ، إذ كيف يصلب الرب بريئا " .

٣- " Memoires of A Janissaries " , p.١٧.

٤- Ibid , p.١٩.

٥- Ibid, pp. ١٩١ , ١٩٣.

واللافت للإنتباه أن أسيرينا لم يهتما بذكر أسباب التحول من المسيحية للإسلام. وعما إذا كان ذلك نتيجة لأسباب دينية أم اقتصادية أم اجتماعية . ذلك لأن الدولة العثمانية لم تكن حتى ذلك الوقت تنتهج سياسة صريحة تشجع التحول إلى الإسلام ، لأن ذلك كان يعنى بالنسبة لها التوقف عن دفع ضريبة الرأس التى كانت عبارة عن ٤٠ أسبرة Aspre [١]، أى قطعة ذهبية واحدة من الفلورين florentin للفرد الواحد . كذلك كان يعنى ذلك أيضاً أن يتوقف الفلاح المسيحى عن دفع مبلغ الإيسبنجى أو جومانيكا ، وهى ضريبة الرأس المفروضة على المسيحيين ، والتى كانت تدفع قبل ذلك إلى الزعماء الاقطاعيين فى صربيا – بلاد قسطنطين ميخائيلوفتش – قبل المرحلة العثمانية ، واستمرت فى العهد العثمانى ، وكانت تساوى قطعتين ذهبيتين بشكل عام وكانت متضمنة فى عائدات التيمار Timar [٢] .

والحقيقة أن الدولة العثمانية لم تشجع مسألة تحول رعاياها من السكان المسيحيين الى الإسلام طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين وذلك لأسباب اقتصادية بحتة . فقد كان ذلك يعنى أن يتوقف كل مزارع مسيحى خاضع لها عن دفع مبلغ ٢٥ Aspre المتوجبة عليه ، فضلا عن ضريبة الرأس . وكان إجمالى

---

١ – الأسبرة هى المعادل الأوربى للأقجه Akga ، وهى عملة عثمانية فضية استمرت حتى القرن الثامن عشر الميلادى . انظر :

Bayerle,G,op.cit.pp.٤،١١.

٢ - راجع : خليل إنالجيك ، دونالد كوارت ، (تحرير) ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للدولة العثمانية ، المجلد الأول ، ترجمة عبد اللطيف الحارس ، بيروت ، ٢٠٠٧م،ص٥٩٩، بهاء الدين يدى يلدز ، المجتمع العثمانى ، بحث فى كتاب : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، تحرير أكمل الدين إحسان اوغلو ، ترجمة صالح سعداوى ،استانبول ، ١٩٩٩م ، ص ٦٤٥. أما التيمار Timar فهى أرض كانت تابعة لأعداء الدولة العثمانية تم الإستيلاء عليها وضمها لأراضى الولايات العثمانية، وجرى منحها للفرسان الذين أظهروا بسالة فى الحروب لزراعتها وتوفير احتياجاتهم مقابل تقديم خدمات عسكرية نظامية . وكان دخل التيمار أقل من ٢٠٠ ألف أقجه . أنظر :

Medhat Sertoglu, Osmanli Tarih Lugati , Istanbul ,١٩٨٦ , ٣٣٨-٣٣٩.

الضريبتين يعادل قطعتين ذهبيتين تقريبا(٧،١٤ جم) تقريبا . وعلى سبيل المثال فلو كان سكان الأناضول من المسيحيين قد تحولوا الى الإسلام فى العام ١٤٨٨م ، لخسرت الخزانة العثمانية حينها عشرات الكيلوجرامات من الذهب [١].

لهذا كله كان السلاطين العثمانيون قليلى الاهتمام بإدخال الرعايا المسيحيين فى الإسلام ، لدرجة أنهم واصلوا فى أحيان عديدة جباية ضريبة الإيسبنجى من المزارعين المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام حديثا [٢].

وعلى الرغم من سابق إصدار كنيسة القسطنطينية تحذيراً إلى أهالى مدينة نيقية عام ١٣٤٠م بعدم الدخول فى الإسلام بعدما لاحظت حالات تحول عديدة عن المسيحية ، فإن ذلك لا يعد قاعدة يقاس عليها للأسباب السابق ذكرها . كما أن المصادر التاريخية العثمانية كابن عاشق باشا [٣] ، تحدثت أحياناً عن دخول قرى بأكملها فى الإسلام ، وأحياناً أخرى عن بقاء المسيحيين على دينهم فى الأماكن التى فتحها العثمانيون .

ويرجع ذلك الى انتشار الحركات الصوفية على نطاق واسع فى منطقة الأناضول دون سيطرة مركزية عليها من أية مؤسسة اسلامية ، وهو ما جعل الدراويش يساهمون فى إيجاد ما يمكن تسميته "دينا شعبيا " بعد اختلاطه بالمؤثرات الوثنية السابقة والمنحدرة من الشامانية والزرادشتية والبوذية وغيرها من العقائد التى اجتاحت منطقة الأناضول وأسيا الوسطى[٤] .

١- بيلديسينو ،ن ، تنظيم الإمبراطورية العثمانية (القرنان الرابع عشر والخامس عشر)، بحث فى كتاب : تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول، إشراف روبير مانتران ، ترجمة بشير السباعى ، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١٩٨.

٢ – نفسه ، ص١٩٩ .

٣ - Asik Pasaoglu , op.cit,p.

٤ – وجدت الشامانية منذ قبل الإسلام عند الأتراك والمغول قبل أن تختلط بعض مظاهرها بطقوس ومظاهر الدراويش الصوفية ،مثل روح الميت التى تتحول إلى طائر، وغير ذلك من المعتقدات . عن ذلك راجع :

Koprulu,F, Influence de Chamanisme Turco-Mongol ,Istanbul , ١٩٢٩.

والحقيقة أن المد الفكرى للحركات الصوفية السابقة على سيطرة العثمانيين فى مناطق آسيا الصغرى والأناضول قد مهد لعمليات تحول السكان غير المسلمين الى الإسلام قبل ذلك بوقت طويل . وعلى سبيل المثال نجح الصوفى الشهير جلال الدين الرومى (١٢٠٧-١٢٧٣م) وأتباعه فى تحول الآلاف منهم الى الإسلام . كما دخل فى مناظرات مع القساوسة والرهبان المسيحيين وكذا الربيين Rabbies اليهود. واحتفظ بشكل خاص بعلاقات طيبة مع رهبان ومقدم دير أفلاطون Plato البيزنطى فى إقليم قونية [١].

ومما ساعد على استمرارية عمليات التحول للإسلام عند سكان الأناضول وآسيا الصغرى هو إحكام قبضة العثمانيين على الكنيسة فى الأراضى المفتوحة حديثا ، مما أضعف دورها فى رعاية السكان المسيحيين الذين فكر بعضهم فى اعتناق الإسلام لعدة أسباب أهمها الفكاك من دفع الجزية ، أو محاولة الحصول على امتيازات عبر الإلتحاق بالعمل فى الجهاز الإدارى والعسكرى، من أجل النفاذ الى الطبقة العليا فى المجتمع العثمانى .

على أن فرق الدراويش الصوفية كان لها الفضل الأكبر فى عمليات التحول الدينى باتجاه الإسلام فى الأناضول والبلقان فى الفترة العثمانية . فقد أولى البكتاشية اهتماما واسعا بهذا الأمر . وأرسل حاجى بكتاش العديد من الدعاة على رأسهم الشيخ صارى صالتيق Sari Saltik الى الأراضى التابعة للبيزنطيين والى دوبرجة Dobruja والبلقان لتحويل السكان المسيحيين الى الإسلام [٢].

١- انظر :

Veryonis, S, Jr, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the eleventh through the Fifteenth Century,London,١٩٧١,pp.٣٨٦-٣٨٨.

٢- انظر : شمس الدين سامى ، المصدر السابق ، الجزء الرابع ، ص ٢٩١٦؛ محمد فؤاد كوبريلى ،المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص١١٢؛ Vryonis,op.cit,p.٣٧٨ ;

Uyar,M, Sari Saltik Populer Islam'in Balkanlardaki Destani Oncusu ,Ankara Universitesi Dil ve Tarih - Geografya Fakultesi , Tarih bolumu Tarih Arastermalare Dergisi ,Cilt:٢١ ,Sayi :٣٣, Ankara,٢٠٠٣,s.١٨٩.

ويبدو أن هناك عاملا هاما ساهم فى تدفق الآلاف من سكان الأناضول والبلقان نحو الإسلام عبر الطريقة البكتاشية التى كانت تمثل " الإسلام الشعبى" فى تلك المناطق والتى نجحت فى استمالتهم عبر مظاهرها وطقوسها التى تشابهت أحيانا مع بعض مظاهر المسيحية دون أن تكون لها علاقة بأصولها .

حدث ذلك عبر عمليات الإغتسال بالمياه والوضوء المصاحبة للجمل التى تقال قبل طقس " عين الجم " Ayni Cem [1] لدى أفراد الطريقة البكتاشية ، وكذلك استخدامهم لماء الورد المشابه لزيت الميرون المقدس المستخدم أيضا فى عمليات التعميد فى المسيحية .

بل أنه جرى العرف فى بعض الأحيان بالأناضول منذ القرن الحادى عشر الميلادى على تعميد أطفال المسلمين بواسطة الأساقفة التابعين للكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية . لأن آباءهم كانوا يعتقدون بأن أطفالهم سوف يصيبهم مس من الشيطان ، كما أن رائحتهم سوف تصبح كريهة كرائحة الكلاب إذا لم يتلقوا التعميد بشكله المسيحى[2] .

كما أن استعمال البكتاشية للنبيذ والخبز فى طقس عين الجم المصاحب لذكرى استشهاد الحسين ، يوازى طقس القربان المقدس Euchrist كرمز على موت المسيح . بالإضافة الى اعترافهم بالأئمة الإثنى عشرة بعد اختلاط أفكارهم بالمؤثرات الشيعية ، وهو مايقابل عدد حواريى السيد المسيح . فضلا عن أسطورة ميلاد بالم

١- عين الجم هو ثانى أكبر طقوس الطائفة البكتاشية . ويتم فى ليالى الشتاء الطويلة، ويتميز بوجود المعازف والأشعار والخمر. ويفسر الجم على أنه اجتماع لسعة القلب ونضج الروح . ويقبل الحضور فرادى ، ثم يحنى الواحد منهم رقبته ليقبل يد الباب، ويقف على قدمه حتى يأذن له بالجلوس. انظر :

Ismet Zeki Eyuboglu, Butun Yonleriyle Bektesilik ,Istanbul ,١٩٨٠, s.١٩٣-١٩٧.

٢- Vryonis,S," Relegious Changes and Patterns in the Balkans,١٤th-١٦th centuries", in, Brinbaum ,H, and Vryonis ,S(eds.) Aspects of the Balkans .Continiuity and change ,London ,١٩٧٢, pp.١٧٣-١٧٤.

سلطان Balim Sultan من عذراء . وكذلك التشابه الكبير في الإيمان بالتثليث الذى يتحول عند البكتاشية الى : الله-محمد-على أو محمد- على- حاجى بكتاش [١] .

وهكذا لم يجد مسيحيو البلقان فارقا بين "مسيحيتهم الشعبية" التى استمروا خلالها فى الاحتفاء بعاداتهم الوثنية القديمة كتلك المتعلقة بالموت وإجراءات الدفن. فضلا عن استخدام النسوة النائحات ،وإعلان العزاء لفترة عام كامل مع وضع أوانى القمح والزبيب والسكر مع الميت فى قبره[٢] .

ومن الواضح أن المسيحيين الذين تحولوا الى الإسلام فى البلقان لم يجدوا عائقا كبيرا فى ذلك مادامت معتقداتهم السابقة تنتقل معهم الى الدين الجديد . وهكذا استمروا فى عبادة القديسن المسيحيين والاحتفاء بأعيادهم وفى نفس الوقت فى عملية تبجيل الدراويش الصوفية المسلمين [٣].

وهكذا ساهم هذا التوفيق بين المعتقدات فى عمليات التحول بسهولة من المسيحية للإسلام . فلم يجد السكان المتحولون حسب ثقافتهم الشعبية البسيطة فارقا جوهريا بين ذلك "الإسلام الشعبى" و"المسيحية الشعبية" التى وجدوا فى وسطها . هذا فضلا عما أظهره أولئك الصوفية والدراويش من كرامات أثرت بشكل كبير على جميع السكان فى الأناضول والبلقان وغيرها من المناطق .

ويمكن القول بأن حالة التدين الشعبى التى تلبست جميع السكان القاطنين فى الأناضول وغرب آسيا الصغرى بصرف النظر عن ديانتهم قد تجلت فى الحركة الدينية التى تزعمها الشيخ بدر الدين ابن قاضى مدينة سماونة ، والمسيحى بوركلوجة مصطفى واليهودى طورلاق كمال فى العام ١٤١٦م، والتى ساوت بين

١- Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism ,pp ٣٧١-.٣٧٢.

٣ - Vryonis, " Religious Changes",pp.١٥٦

وينكر الباحث أيضا أن رجال الكنيسة فى البلقان عانوا كثيرا عبر معركة خاسرة مع تلك التقاليد الوثنية التى تجذرت فى المجتمعات الريفية بالبلقان.

٣- عن ذلك أنظر :

Babinger ,F ," Der Islam in Sudosteuropa " in, Volker und Kulturen Sudosteuropas , Schriften der Sudosteuropa Gesellschaft , Munich ,١٩٥٩ ,pp .٢٠٦-٢٠٧

الأديان الثلاثة ، واعتنق أفرادها مبدأ الشيوعية فى الملكية ،ونجحت فى جذب العديد من السكان الفقراء والمهمشين على اختلاف عقائدهم [١] .

وبالإضافة الى ما سبق ، فقد انتشرت الحركات الصوفية المختلفة منذ القرن الثانى عشر الميلادى فى أراضى مغول القفجاق – حيث الأسير شيلتبرجر – وذلك بفضل خلفاء الصوفى الشهير الشيخ أحمد يسوى ، أمثال آدى جارميش والشيخ بيراش الصوفى ومريده أرش محمد طوق محمد محمد أوغلو الذى لقب بشيخ بابا [٢] .

على أن التحول الدينى الحقيقى لسكان مغول القبيلة الذهبية نحو الإسلام قد حدث فى عهد بركة بن جوجى (١٢٥٦-١٢٦٧م)، الذى كان قد اعتنق الإسلام قبل توليه العرش المغولى بفضل الشيوخ الصوفية فى مدن خجند وبخارى [٣].

ولدينا أيضا دليل من المصادر اللاتينية على اعتناق بركة للإسلام قبل توليه الحكم، فحسب رواية وليم الروبروكى William of Rubruk الذى زار معسكر بركة عام ١٢٥٣م، فقد أشار الى إسلامه كما لاحظ بعض المظاهر الإسلامية مثل عدم سماح بركة بتناول لحم الخنزير فى معسكره[٤] .

واستمر مغول القبيلة الذهبية فى التحول من عقائدهم القديمة الى الإسلام،فاعتنق السلطان محمد أوزبك بن طغرل شاه(١٣١٣-١٣٤١م) الإسلام أيضا

١- Vryonis,The Decline of Medieval Hellenism,p.٣٥٨

وعن حركة الشيخ بدر الدين ورفاقه ونتائجها.راجع المصادر التالية :

AsikPasaoglu,op.cit,pp.٨٩-٩١

Doukas,op.cit,pp.١٢٠-١٢١

٢ – انظر: محمد فؤاد كوبريلى ،المرجع السابق ،الجزءالأول ،ص٩٨-٩٩.

٣ – انظر:محمد سهيل طقوش، مغول القبيلة الذهبية والهند ، بيروت ،٢٠٠٧م ،ص٣١. ويرى بارتولد أن بركة اعتنق الإسلام قبل توليه العرش متأثرا بالشيخ سيف الدين البافرزى ت ١٢٨١م . راجع: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى،ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة،١٩٩٦ م ،ص١٩٥.

٤ - Dawson, Ch, Mission to Asia, London, ١٩٨٠ ,p. ١٢٤.

قبل توليه العرش بفضل بعض الفقهاء المسلمين الفرس [1]. وكان مجلسه لا ينعقد الا بحضور القاضى والفقهاء المسلمين . ووصل اعتناق الإسلام ذروته لدى سكان القبيلة الذهبية فى المدن والريف والصحراء ، وتوغل حتى جنوبى روسيا وأسلم العديد من سكان سيبيريا [2] .

وكما هو الحال فى الأناضول والبلقان ، فعلى الرغم من تحول سكان القبيلة الذهبية للإسلام ، ظلت العقائد القديمة لهم تلقى بظلالها على شعائر الدين الجديد . فقد استمرت الشامانية ومظاهرها مترسبة فى المجتمع المغولى [3].

على أية حال، فمن الواضح أنه قد حدثت عمليات تحول واسعة من قبل سكان الأناضول وآسيا الصغرى والبلقان فضلا عن أراضى مغول القبيلة الذهبية الى الإسلام .

غير أن الأسير ميخائيلوفيتش يبدى ملاحظة لها دلالتها الهامة بخصوص أولئك المسيحيين الذين كان يعرفهم قبل أن يتحولوا إلى الإسلام ، فيذكر أن تصرفاتهم قد اتسمت بالسوء أكثر من أولئك الذين ولدوا مسلمين [4]. ويقصد بذلك أنهم قد أصبحوا أكثر قسوة تجاه الرعايا المسيحيين والسكان المسلمين على حد سواء.

وعلى الرغم من أن الأسير الصربى قد يبدو هنا حانقاً على أبناء ديانته الذين تحولوا إلى الإسلام ، وربما كان يتحدث أيضا عن تجربة شخصية ، فإن هناك رأيا

١- محمد سهيل طقوش،المرجع السابق،ص ٦٧ . على حين يرى بارتولد انه اعتنق الإسلام بعد توليه الحكم بتسع سنوات عام ١٣٢١م، بفضل الشيخ سيد آتا التركستانى المدفون فى طشقند .انظر المرجع السابق،ص١٩٧.

٢- محمد سهيل طقوش، المرجع السابق،ص٦٩. ويذكر شبولر أن أوزبك قاد القبيلة الذهبية نحو الإسلام عبراتباعه لمبادئ الشريعة الإسلامية بدلا من قوانين الياسا المغولية .انظر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ،ترجمة خالد عيسى، دمشق ،١٩٨٢م ، ص٩٥ .

٣- عن ذلك .انظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص٤٤؛ شبولر، المرجع السابق ،ص٩٥؛ بارتولد،المرجع السابق، ص١٩٦ الذى تحدث عن عادات قديمة مثل عدم استخدام سكان مغول القبيلة الذهبية لمياه النهر فى الغسيل أو الإغتسال .

٤ - Memoires of the Janissary,p.١٩١

مشابها لهذا ظهر فى فى منطقة أخرى من العالم الإسلامى فى القرن الخامس عشر الميلادى أيضا . فإذا أمعنا النظر فى أحوال المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام ، ثم شغلوا مناصب عليا فى النظام الإدارى المملوكى فى مصر، سوف نجد أن بعضهم قد عرف أحيانا بالقسوة تجاه الرعية .

وربما يمكن تفسير ذلك الى أنهم كانوا يتصرفون بحذر حينما كانوا على المسيحية ، وبعد إشهار إسلامهم وعملهم الجديد فى الجهاز الإدارى للسلطة الحاكمة ، لم يعودوا فى خشية منها . وربما كان ذلك أيضا تزلفا للحكام المماليك فى محاولة لإثبات إخلاصهم . لدرجة أن المقريزى وصف أحدهم بقوله " ... ومن الغريب أن ذلك الرجل كان حسن السيرة فى نصرانيته ثم أصبح عذاباً على الناس بعد إعلانه الإسلام" [1].

وانفرد شيلتبرجر عن ميخائيلوفيتش بذكر المراسم التى تمت عند تحول الرجل المسيحى إلى الإسلام ، فذكر أن عليه أن يرفع إصبعه عالياً ويردد " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، قبل أن يقوم بإنكار العقيدة المسيحية . ثم يقوم المسلمون بإلباسه ثوباً جديداً وعمامة بيضاء بدلاً من عمامة المسيحيين الزرقاء أو اليهود الصفراء [2] . ثم يركبونه فرساً لتبدأ مراسم الإحتفال به ، و يزفه الشيوخ والعوام مصحوباً بالطبل

---

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الثالث . القسم الثانى ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص ٨٢٠ . و ذلك عندما تحدث عن الوزير أبو الفرج الأسلمى (ت ٧٩٦ هـ)

٢ - The Bondage and Travels,p.٧٤

يتفق حديث شيلتبرجر مع ما ورد من الشروط الستة المستحبة لعقد الذمة حسب ما ورد فى العهدة العمرية من " لبس الغيار المخالف لملابس المسلمين" . راجع: الماوردى ، الأحكام السلطانية،ص١٣٧-١٣٨. ومن الواضح أن تلك الشروط من وضع الفقهاء المسلمين غالوا فى مرحلة متأخرة فى فرض القيود على غير المسلمين.فمن الثابت أنهم لم يلتزموا باختلاف الملابس عن المسلمين فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. عن ذلك راجع : ابن قيم الجوزية ،أحكام أهل الذمة ،ج١، ص٢٣٦.

والصنج والمزامير فى شوارع المدينة وهم يصيحون فرحا ، قبل أن يتم ختانه . وإن كان فقير الحال قاموا بجمع الهبات والتبرعات له حتى يبدأ حياته الجديدة [1].

والحقيقة فإن ما ذكره شيلتبرجر يقترب كثيراً مع ما و رد فى التراث الفقهى لدى المسلمين فى تلك الفترة . فقد ظهر ذلك فى ثنايا كتابات الفقيه المغربى ابن الحاج التى تناولت مراسم إشهار إسلام أحد أفراد أهل الذمة فى مصر فى العصر المملوكى. فأشار أنه كان يتوجب عليه التوجه إلى خطيب أحد المساجد ليشهر إسلامه على يديه . قبل أن يعود فى صلاة الجمعة التالية ليقف وسط المسجد ويكرر إعلان إسلامه على الملأ ، وعندها يتوقف الخطيب عن خطبته لتحدث ضجة فرح عارم [2].

١- Loc.cit.

كما أشار شيلتبرجر أيضا الى مراسم تحول النساء أيضاً من المسيحية إلى الإسلام ، حيث تتوجه المرأة إلى قاضى القضاة ، وتقوم بترديد الكلمات السابقة بالإضافة إلى إنكارها للعقيدة المسيحية ثلاث مرات قبل أن تسلمه حزامها ليشقه إلى نصفين ويجعله على شكل صليب .

٢- (أبو عبدالله محمد بن محمد العبدرى)،المدخل الى الشرع الشريف ، الجزء الثانى ، القاهرة ، د.ت ،ص ٢٧١ " ...يتلفظ بالإسلام على رؤوس الناس ،ويقطع الخطيب الخطبة بسببه ،وتقع ضجة فى المسجد...ويتعين على الخطيب أن يأمره بالخروج من المسجد،ويأمر من يخرج معه من المسلمين حتى يغتسل إن كان جنبا " ؛ وانظر أيضا قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر المماليك ،القاهرة،٢٠٠٣م، ص١٦٢-١٦٣.

وهناك صيغة كاملة حفظها التراث الفقهى الإسلامى منذ القرن الخامس الهجرى يذكرها المتحول من أهل الذمة الى الإسلام هى : " يعلن المسيحى فلان أنه يرفض الدين المسيحى عن اعتقاد، وأنه يعتنق ديانة الإسلام عن اعتقاد،لأنه يعلم أن الله ليس له نظير،وأنه نسخ بالقرآن ما أنزله قبله من الكتب والشرائع والأديان. ويشهد المسيحى المذكور: أن لا إله إلا الله،وأن الله ليس له شريك،وأن محمدا عبده،وخاتم رسله وأنبياءه،وأن المسيح ابن مريم هو عبده ورسوله،وأن الله أرسل أحد ملائكته الى مريم ليخبرها بأنها ستلد عيسى، وأنها حملت من روحه تعالى . وبهذا خضع المسيحى المذكور لجميع أوامر الإسلام الإلهية المتعلقة بالوضوء والصلاة والزكاة والصيام وغيرها .ويعلم ما يترتب على تركها من العقاب. كما يعلم المحرمات الواجب الإمتناع عنها. وعليه، فإنه مال الى الإسلام حبا فيه.ويحمد الله على هذه النعمة التى أنعم بها عليه، فألهمه اعتناق هذا الدين. هذا هو ما قاله -

على أن شيلتبرجر لم يذكر المكان الذى شهد فيه عمليات التحول من المسيحية إلى الإسلام سواء أكان ذلك إبان سنوات أسره لدى العثمانيين أم لدى تيمورلنك وأبنائه أم لدى أمراء القبيلة الذهبية. كما أننا نعرف أنه سبق له أن زار مصر على عهد السلطان المملوكى الأشرف برسباى عام ١٤٢٥م ، ومكث بها فترة فى معية وفد من قبل الأمير المغولى جكرة أوغلان . غير أن صيغة مرسوم تحول الذمى الى الإسلام لم تتغير تقريبا من منطقة الى أخرى بفضل العناصر الرئيسية المحددة لها .

ويمكننا أن نلحظ فارقا بين حديث كل من شيلتبرجر وميخائيلوفتش عن المساجد ودورها لصالح الأخير لأن فترة أسره التى استمرت من العام ١٤٥٥م حتى ١٤٦٣م قد جرت بعد استقرار مؤسسات الدولة العثمانية ، ولهذا فقد تميز عن شيلتبرجر بالإشارة إلى أن مؤسسة الأوقاف العثمانية كانت تضطلع ببناء المساجد عبر مساهمات السلطان والوزراء والباشوات والتجار الميسورين ، كما أشار الى دور كل من المؤذن والخطيب والإمام داخل المسجد .

كان من الطبيعى نتيجة لوجود الأسيرين المسيحيين وسط العثمانيين والمغول المسلمين بشكل مستمر ، أن يكونا على معرفة تامة بصلواتهم اليومية ، وأوقاتها وشروط وأماكن قيامها. وهكذا أشارا إلى الصلوات الخمس المعروفة لدى المسلمين [١].

-المذكور، قولا مجردا عن الخوف،وخاليا عن كل تأثير لأنه يجب ألا يقهر المرء فى الدين. عن ذلك انظر: إبن سلمون(ابن سلمون الكنانى الغرناطى ١٢٨٩ -١٣٦٥م) ، العقد المنظم للحكام فى ما يجرى على أيديهم من العقود والأحكام، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ، ١١ ٣ ١٨٦٠٠ الرقم العام ٥٢٢٤ ، رقم الصنف ع.ك |٢١٦٦ ، ص ٢٥٦ .

١- Shiltberger,op.cit.p.٦٧-٦٨;Mihalovic,op.cit.p.١١.

على الرغم من خطأ الأول عند وصفه لصلاة العشاء بأنها صلاة يؤديها المسلمون لمحمد من أجل الشفاعة . على حين أشار الثانى إلى سبع صلوات على المسلمين بعد إضافة صلاة الضحى وصلاة التهجد . ونتيجة لمكوثهما فى الأسر لسنوات طويلة فقد رصدا أيضا كيفية معاقبة السلطات العثمانية والمغولية لمن يتخلفون عن أداء الصلوات مهما كانت طبقتهم الاجتماعية ، فكان يجرى تكبيلهم على سلالم خشبية ليطاف بهم فى شوارع المدينة ، قبل أن يتم توثيقهم أمام المسجد لحين انتهاء الصلاة ، حيث يجلدون خمس وعشرين جلدة . وكذا كان يحدث نفس

ويبدو أن إقامة ميخائيلوفتش الطويلة بين الجنود الانكشارية قد جعلته يتحدث عن الصلاة والوضوء بشكل موضوعى وواقعى ، فأشار الى وجوب الصلاة على جميع المسلمين سواء أكان ذلك داخل المسجد أو فى المنازل . ، كما اهتم بالحديث عن مساجد المسلمين بشكل أكبر مما اهتم به شيلتبرجر ، فأشار الى اتساعها وتميزها بلونها الأبيض ، بينما تتوسطها مآذن دائرية يصعد اليها المؤذن لأداء الآذان الذى لم يغفل أيضاً عن ذكر صيغته بشكل سليم [١].وفى ملاحظة جيدة منه ذكر أنه حتى إذا كان المسلم مسافراً ، فإنه يتوجب عليه أن يتوقف للتوضؤ ، ثم يتنحى عن الطريق جانباً كى يقوم بأداء صلاته [٢].

وفى وصف نادر لمساجد المسلمين من الداخل ، أشار ميخائيلوفتش الى تميزها بالنظافة البالغة ، وأنهم قد استخدموا قناديلا من الشحم الحيوانى من أجل الإضاءة الداخلية بها ، بينما تتوسطها المنابر التى كان الشيوخ يتلون القرآن عليها ، على حين جلس المصلون على السجاد الذى تميز بنظافته للإنصات بانتباه كبير [٣]. كما اتفق الأسير الصربى مع شيلتبرجر فى الإشارة إلى خلع المسلمين لنعالهم ووضعها فى مكان محدد خارج المساجد . كذلك أشارا إلى عدم اتخاذ الرسوم والصور بداخلها،

الأمر مع الأشخاص الذين تمت إدانتهم بارتكاب الجرائم . انظر Shitberger,op.cit.pp.٦٨-٦٩ ;Mihalovic,op.cit,p.١١.

ولاحظ الأخير عدم انتظام بعض الوزراء أو القادة العسكريين من العثمانيين فى الصلاة فى المساجد.

١ - The memoires of the Janissary,pp.١١،١٣

٢ - . Ibid.p.١١, ولم يفت الأسيران الإشارة أيضاً إلى أهمية الوضوء لدى المسلم ، وأن نقضه إياه يوجب إعادته ثانية . كما لاحظ ميخائيلوفتش أيضاً اهتمام المسلمين بنظافتهم الشخصية "... فهم دائماً ما يرتدون الملابس النظيفة لدى توجههم لأداء الصلوات ، فإذا ما أصابها أى اتساخ فإنهم يقومون بتبديلها على الفور ".

٣ - Ibid.p.١٣..

وعدم السماح للنساء بدخول المساجد طالما كان الرجال بداخلها ، وكذا منع إدخال الأسلحة ، فضلا عن عدم جواز دخول المسيحيين إليها [١].

على أن المسألة التى استحوذت على اهتمام الأسيرين لأسباب يسهل فهمها تتعلق بتركيزهما على الدور الكبير الذى لعبه خطباء المساجد فى حث الجنود العثمانيين على قتال المسيحيين . وعلى سبيل المثال أغفل ميخائيلوفيتش كافة القضايا الموضوعية التى تناولها خطباء الجمعة آنذاك، وقام باتهامهم على الدوام بالحث على الجهاد ضد المسيحيين. فأورد فى كتابه عبارات من تلك الخطب تحض على هذه الفكرة ، وتشيد بالذين استشهدوا فى ميادين القتال ضد القوى الأوربية المسيحية[٢] .

كذلك الحال مع شيلتبرجر الذى توقف كثيراً أمام الدعاء الذى كان يؤديه المسلمون بعد الإنتهاء من صلاة الجمعة ، حيث يرفع المصلون أياديهم داعين الله بصوت واحد أن ينتقم من المسيحيين قائلين " اللهم فرق جمعهم " . وفى إسقاط منه على وضعه فى الأسر ، وعلى تمنياته كمسيحى ، يشير إلى أن المسلمين يبتهلون إلى الله بهذا الدعاء لأنهم يقولون أنه لو اتحد المسيحيون وساد السلام فيما بينهم فسوف ينتصرون على المسلمين [٣].

وحدث أن قاوم ميخائيلوفتش إنحيازه الدينى والثقافى ذات مرة ، وتعرض بحياد لتعامل خطبة الجمعة مع المسيحيين الخاضعين للحكم العثمانى ، حيث سجل دعوة الخطيب إلى تطبيق أوامر السلطان العثمانى محمد الفاتح بعدم ظلم الرعايا المسيحيين أو اقتحام منازلهم وبساتينهم [٤]. وكأنه يورد الفارق بين معاملة العثمانيين للمسيحيين

---

١ – انظر : Shiltberger,op.cit.p.٦٨ ; Mihalovic,op.cit.p١٣.

٢- The Memoires of the Janissary,p.١٣

"..... عندما تشاهدون الجنود المسلمين العائدين من قتال المسيحين إمنحوهم الشرف والسلام . وقرموا بتقبيل آياديهم وأقدامهم وهكذا تكونوا قد شاركتم بشكل ما فى الجهاد " .. « صلوا من أجل أرواح آبائكم ، ومن أجل أولئك الذين استشهدوا فى الحروب ضد المسيحين .. ».

٣-The Bondage and Travels ,p. ٦٩.

٤- The Memoire of the Janissary ,p. ٢٩،١٦٩.

الخاضعين لهم ، المختلفة عن معاملة أعدائهم المسيحيين الأوربيين والبيزنطيين فى أراضى البلقان وطرابيزون وغيرها .

أدرك ميخائيلوفتش أيضا مكانة المصاحف عند المسلمين . فلاحظ تبجيلهم وتقديسهم لها، ومحافظتهم عليها وحملها معهم دائما . ولاحظ أن جميع الجنود العثمانيين يحملون أيضا مصاحف صغيرة تحت إبطهم فى أوقات الحروب غير أنه أسماها أحياناً بالحمايلى hamahely [1] . كما لفت نظره أنهم كانوا يكتبون اسم « ذو الفقار » أسفلها زاعمين أن ذلك يجلب لهم النصر فى المعركة.

وهنا تظهر من جديد تأثيرات أفكار الدراويش أتباع الطريقة البكتاشية الذين تسللت الأفكار الشيعية إليهم على سلوك الجنود العثمانيين و الإنكشارية الذين عاش ميخائيلوفتش بينهم ثمانى سنوات . وما لم يذكره بوضوح أنهم استخدموا المصاحف الصغيرة كأحجبة للحماية ودفع الأخطار، وكذلك من أجل جلب النصر فى المعركة. ومن الغريب على الصربى ميخائيلوفتش عدم الربط بين تلك الممارسة للتدين الشعبى لدى الجنود الإنكشارية المسلمين على اختلاف مذاهبهم وبين بعض الممارسات التى تعبر عن التدين الشعبى المسيحى فى البلقان كالتبرك بالأيقونات ورفات القديسين . وغير ذلك من الطقوس والمعتقدات الشعبية الأخرى السابقة على المسيحية فى صربيا والبلقان ،كانتظار هطول الأمطار فى موعده السنوى والربط بينه وبين الخصوبة وبين عوامل أخرى متعلقة بالحياة البدائية للمجتمعات الريفية فى نقاط التماس على الحدود المشتركة بين العثمانيين ومختلف شعوب البلقان [2] .

١- The Memoires of the Janissary,p.٩

الحمايلى : حجاب يحمل دائما ويعلق على الجسم لحماية صاحبه من أوهام الشياطين والجان . أنظر: محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى ، دمشق ،١٩٩٠م،ص٦٤.

٢ – Vryonis," Religious Changes" pp.١٥٤-١٥٦: راجع أيضا : بيتر شوجر ، أوربا العثمانية ١٣٥٤ – ١٨٠٤(فى أصول الصراع العرقى فى الصرب والبوسنة) ، ترجمة عاصم الدسوقى ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص٧٠-٧١.

غير أن الأمر لم يخلوا من إشارة طريفة حول سلوكيات بعض الجنود العثمانيين ، فبعد أن ذكر ميخائيلوفتش أنهم يبجلون المصاحف ويقسمون عليها ، لاحظ أن هذا لم يمنع بعضهم من أن يحمل أحياناً أحجبة صغيرة تحوى قطعا من الصابون البندقى ليقسموا عليها حين تعرضهم لبعض المواقف الصعبة [١].

ويحوى حديث ميخائيلوفيتش السابق إشارة تعبر عن دلالة اقتصادية آنذاك ، إذ أننا نعرف أن الصابون البندقى كان قد أثبت تفوقه على الصابون التركى المحلى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وهو ما جعل منه أحد أهم السلع والبضائع فى حركة التجارة بين الدولة العثمانية والمدن الايطالية [٢] ، بالإضافة إلى سلع أخرى كالدقيق ،وحجر الشبه ،والحبوب، والأقمشة، والمعادن.

كما استحوذت مسألة تحريم الإسلام لشرب الخمر على اهتمام الأسيرين أيضاً[٣].

وبصرف النظر عن ذلك ، فقد ترك لنا الأسير الصربى إشارة أكثر دلالة على حدوث بعض الاستثناءات ، فذكر أن بعض رجال الحاشية والقادة العسكريين كانوا يشربون الخمر [٤]. مما يشى بعدم انتظام مسألة تطبيق العقوبات داخل المجتمع العثمانى آنذاك.

على أنه عاد فى ملاحظة لا تخلوا من دلالة أخرى ذات مغزى ، فأشار إلى أنه عندما يتوجه الجميع إلى ميدان القتال لمحاربة المسيحيين ،فإنهم لا يقربون الخمر على الاطلاق ،فى الوقت الذى يسمحون فيه للجنود المسيحيين الذين كانوا يحاربون

---

١ -The Memoires,p.٩.

٢- Fleet,K, European and Islamic Trade in the Early Ottoman State,Cambridge,١٩٩٩,pp.٢٤-٢٦.

٣ - Shiltberger, op. cit. p٧٢ . ;Mihalovic,op.cit.p١٣.

ذكر شيلتبرجر أن نبى المسلمين قرر تحريمها بسبب العربدة وعمليات الشجار والقتل التى حدثت بسببها . بينما أكد ميخائيلوفتش على مسألة تحريم الخمر ، فأشار الى أنه ليس هناك مسلم حقيقى يعاقر الخمر ، وإذا ما أدين شخص بذلك فإنه يعاقب بقسوة . دون أن يحدد لنا كيفية تنفيذ تلك العقوبة.

٤ - Mihalovic,op.cit.p١٣

معهم فى صفوف الانكشارية بشرب الخمر دون ممانعة . حتى أنهم كانوا يقومون بتزويدهم بها وتلبية احتياجاتهم [١]. ولابد أن حاجة العثمانيين للإستفادة من تلك القوات المسيحية فى ميادين القتال هى التى فرضت تلك عليهم إبداء المرونة فى هذه المسألة.

ونظرا لطول فترة الأسر لدى المسلمين فقد حضر الأسيران صيام شهر رمضان [٢] وأعياد المسلمين . فتحدث شيلتبرجر عن عيد الفطر الذى يستمر لثلاثة أيام ، واصفاً صلاة خطبة العيد .ومرة أخرى فرضت الهواجس التى انتابت الأسير الألمانى نفسها فلم يذكر من خطبة العيد سوى الدعاء بطلب العون والقوة من الله لمحاربة أعداء الدين الاسلامى .كما تعرض بتفصيل أكبر مع بعض التشوش لكيفية احتفال المسلمين بعيد الأضحى وقيامهم بذبح الشياه والثيران وتوزيعها على الفقراء [٣].

وحدث لدى ميخائيلوفتش أيضا بعض الخلط فيما يخص أعياد المسلمين ، فهو يسمى عيد الفطر بالعيد الكبير Buiuk Bayram ، الذى يأتى قبل الحصاد ويستمر لثلاثة أيام. كما ذكر فى اقتضاب أن عيد الأضحى هو العيد الصغير Cuczuk Bayram لدى المسلمين وهو يحل فى وقت الخريف [٤].

ويمكننا أن نحاول تفسير تحديده لعيد الأضحى فى الخريف عن طريق رصد عدد مرات ورود عيد الأضحى خلال سنوات أسره الثمانية لدى العثمانيين ١٤٥٥-١٤٦٢م | ٨٦٠ - ٨٦٨هـ ، لنجد أنه قد حل بالفعل لخمس مرات فى فصل

---

١ - Loc.cit

٢- The Bondage and Travels ,p.٧٠. الذى عرض لمسألة عدم جواز اقتراب المسلمين من زوجاتهم فى نهار رمضان. . كما انفرد عن زميله بالإشارة إلى أن الدين الإسلامى منح رخصة الإفطار للمرضى والمرأة الحامل والمرضعة .

٣ - The Bondage and Travels,p.٧١

ويبلغ التشوش مداه لدى شيلتبرجر الذى عاش وسط المسلمين لثلاثة عقود حينما يذكر أن الحجاج المسلمين يزورون فيه قبر الرسول والكعبة المشرفة فى المدينة المنورة .

٤ - Memoires,p.٣

الخريف ، وذلك خلال شهور نوفمبر و أكتوبر وسبتمبر على الترتيب فى الأعوام من ١٤٥٥ – ١٤٥٩م [١] .

لكن الغريب أنه أورد عن حق ما سمعه من الحجاج العثمانيين الذين عادوا الى بلادهم عن كيفية اقتطاعهم خرقاً صغيرة من كسوة الكعبة ،ليحتفظون بها ولتكون دليلاً دامغاً على قيامهم بالحج . وهو الأمر نفسه الذى ورد بعد ذلك فى كتابات الأسير الانجليزى جوزيف بتس الذى زار مكة المكرمة العام ١٦٨٠م ،حيث أشار إلى أنه بعيد انتهاء فترة الحج ، قام شريف مكة بتحويل كسوة الكعبة إلى قطع صغيرة من أجل بيعها للحجاج الذين أقبلوا على شرائها [٢] .

وبعيداً عن التركيز على القضايا التى استوجبت انحيازاً ثقافياً من جانب الأسيرين ، كمسألة بنية الدين الإسلامى ومبادئه التى حضت على اضطهاد وقتال المسيحيين أينما وجدوا ، فقد توقفا أمام المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية الإيجابية للسكان المسلمين الذين عاشا فى أوساطهم . ولم يستنكفا الحديث عنها بحياد تام . من ذلك ملاحظة شيلتبرجر أن ملاك البيوت المسلمين لم يتقاضوا إيجاراً من شاغليها خلال شهر رمضان . وكذلك عدم مغالاة التجار المسلمين فى أسعار السلع والبضائع ،ولاحظ أنهم كانوا يقنعون بربح عادل ربما بلغ واحد على أربعين من سعر السلعة المباعة [٣] .

١- عن ذلك راجع : ويستنفيلد ،ف ،جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ، ترجمة عبد المنعم ماجد و عبد المحسن رمضان ،القاهرة ، ١٩٨٠م ، ص ٧٨ .

٢- رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة ودراسة عبدالرحمن الشيخ،القاهرة،١٩٩٥م،ص٥٤. ذكر بتس أن الحجاج يقبلون على شراء تلك القطع من كسوة الكعبة المشرفة لاستخدامها كحجاب ضد الخطر، وكذلك لوضعها فوق صدورهم عندما يوافيهم الموت .

٣ – The Bondage ,p.٧٥. ذكر أن المسلمين "اعتبروا ذلك بيعاً عادلاً أمر به محمد كى يعيش الفقراء فى سعادة إلى جوار الأغنياء".

كما أشار ميخائيلوفتش أيضاً إلى أن المسلمين كانوا يتقربون الى الله بعتق العبيد الموجودين لديهم . فضلاً عن قيام الأثرياء منهم بتقديم الأضحيات من الشياة والماعز والجمال وكذا توزيع اللحوم والخبز والأموال على الفقراء. غير أن المثير فى الأمر أنه ذكر بحياد يحسب له أن توزيعهم لتلك الصدقات لم يكن يفرق بين الفقراء المسلمين أو المسيحيين [١].

كما انفرد بذكر الرعاية التى أولاها السلطان العثمانى محمد الفاتح لمئات الآلاف من رعاياه المسيحيين ، فقد اهتم بإجراء تعداد سكانى لهم . بحيث دفع كل مسيحى ضريبة رأس تبلغ أربعين أسبره Aspri أو أقجه akca . وهو ما يعادل قطعة ذهبية واحدة من الفلورين florin سنوياً ، بينما دفع المسيحى القادر على الكسب والربح قطعتين ذهبيتين . كما قام الفلاحون المسيحيون بدفع نصف الضريبة السلطانية إلى أصحاب التيمارات ، فضلاً عن عشر الحبوب الموجودة [٢].

وهكذا فعلى الرغم من الانحياز الثقافى لميخائيلوفتش لصالح المسيحية ، وضد الدين الإسلامى ، فقد استمر فى الاشارة إلى التسامح الكبير الذى أبداه العثمانيون تجاه رعاياهم المسيحيين . فأشاد بأوامر السلطان محمد الفاتح لجنوده بعدم السير بخيولهم وسط أراضى المسيحيين ، وأن من يتسبب منهم فى إحداث خسائر فى الحبوب أو يقوم بالإستيلاء عليها دون أن يدفع تعويضاً لذلك ، سوف ينال عقوبة القتل نتيجة لذلك [٣]. كما أورد مثالا لجندى عثمانى مسلم حكم عليه بالإعدام نتيجة لاستيلائه على لبن تمتلكه إحدى الفلاحات المسيحيات دون أن يدفع تعويضاً لذلك . كما أورد مثالاً آخر على عدالة السلطان الفاتح مع رعاياه المسيحيين الذين أمرهم بضرورة ارسال آلاف من الماشية أو الخيول للعمل فى جر معدات الجيش العثمانى ، فضلا عن

١- Memoires,p.٣.

٢- Ibid,p.١٨٩

٣- Memoires,p.١٨٩

إرسال المؤن الغذائية ، مقابل تحديدهم السعر المطلوب فيها بشكل عادل ، حتى لا يتسبب ذلك فى أية خسارة يمكن أن تحيق بهم [1].

ويمكن القول فى النهاية أن رؤية الأسيرين شيلتبرجر وميخائيلوفتش عن الإسلام كانت مغايرة فى تفاصيلها عن رؤى النخبة الأوربية . فلم يهتما بطعن الإسلام كدين أو وصمه بالوثنية المطلقة ، ولا بطعن نبيه كما فعلت الكتابات الكنسية ، بل استفادا من تعاملهما اليومى مع المسلمين ، وإن لم يخل الأمر من التأثر بالرؤية الشعبية الصوفية للإسلام ، التى تسللت إليها أيضا العديد من الروافد الشيعية ، خاصة تلك التى رفعت على بن أبى طالب الى مقام النبوة .

كما تناول الأسيران بحياد موقف الإسلام من الدين المسيحى وتبجيله لعيسى ومريم ، غير أنهما أفاضا فى اتهام الاسلام بالحض على اضطهاد وقتل المسيحيين . وبفضل تجربتهما الخاصة التى مكنتهما من العيش والتعامل اليومى مع السكان المسلمين لسنوات طويلة، فقد اتصفا بالموضوعية فى كثير من الأحيان عند الحديث عن العديد من الصفات الإيجابية التى تمتع به المجتمع الإسلامى الذى عاشا بداخله تجربة الأسر .

بالاضافة إلى ما سبق ، لم يذكر الأسيران أنهما دخلا لمرة واحدة فى جدال دينى مع المسلمين العثمانيين أو المغول . ومن الطبيعى أن نفترض أن ذلك قد لم يتم نظرا لحساسية وضعهما فى الأسر . وربما يرجع ذلك الى خلفيتهما الدينية البسيطة بوصفهما فى الأصل جنديين عاديين لا يتمتعان بثقافة دينية رفيعة تؤهلهما لذلك . غير أن هذا يشى أيضا بالتسامح الدينى الذى أبداه العثمانيون تجاههما ، وهو ما تجلى عبر عدم إشارة الأسيرين إلى تعرضهما لأى اضطهاد يرغمهما على التحول الى الإسلام .

* * *

١- Loc.cit